

نبذة مختصرة عن حياة الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي

نسبه: هو العلامة الورع الزاهد تذكرة السلف الشيخ أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي التميمي الحنبلني وترجع أسرة آل سعدي إلى بني عمرو، أحد بطون الكبيرة من قبيلة تميم المشهورة. مولده: ولد الشيخ عبد الرحمن -رحمه الله- في مدينة عتيزة بالقصيم في اليوم الثاني عشر من شهر محرم، من السنة السابعة وثلاثمائة بعد الألف (1307هـ)، قبل وقعة (المليدا) الشهيرة بسنة واحدة، نشأته: نشأ يتيم الأبوين؛ إذ توفيت والدته سنة (1310هـ) وعمره أربع سنين، وتوفي والده وعمره سبع سنين سنة (1313هـ). ففكلمته زوجة والده -رحمها الله- وأحبته أكثر من أولادها، ورعته حتى شب، ثم انتقل إلى بيت أخيه الأكبر حمد قوام برعايته وتربيته. وكان حمد رجلا صالحا، وهو من حملة القرآن ومن المعمرين. ولقد كان والد الشيخ عبد الرحمن من العلماء، وإماما لمسجد المسوكف بعتيزة وكان قد وصى ابنه حمدا برعايته أخيه الأصغر الشيخ عبد الرحمن وقد كانت شهادته ماثرا للإعجاب والديهة ولفت الأنظار؛ لذكائه ورغبته الشديدة في طلب العلم، كما كان محافظا على الصلوات الخمس من الجماعة، حتى إنه خرج لصلاة الفجر صباح سطوة آل سليم، وكان عمره خمس عشرة سنة، وكان القصر فيه الرماة، وكان الناس متحضنين في منازلهم خوفا على أنفسهم، فقابل بعض الناس فقاظوه، فقالوا: إلى أين تريد الذهاب؟ فقال: لصلاة الفجر! فصره حتى أتاه إلى بيته، وعلى هذا كان حرصه على الاتقوة صلاة واحدة في أشد الأزمات التي واجهته في عصره. طلبه للعلم: كما ذكرنا في نشأة الشيخ من حرصه على طلب العلم الشرعي، فكان حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب قبل تمام الثانية عشرة من عمره، واهتم بطلب العلم على علماء بلده، وعلماء البلاد المجاورة له، كما كان يستفيد من العلماء الذين ينفذون، ومن يردون إلى بلده، كما جعل أوقاته كلها في تحصيله للعلم، فحفظها ودراسة ومراعاة واستكثارا، حتى أدرك في صباه من العلم ما لا يدركه غيره في زمن طويل وقد كان لا يصرفه عن حلق الذكر ومجالس الدرس أي صارف، ولا يرده عن الدروس أي راد، إلا ما يكون في حال الضرورة. كما تعلم القراءة والكتابة في سن مبكرة، ثم انكب على العلم وانقطع له، ولم يشتغل بأي من الأعمال التجارية حرصا على طلب العلم. ولما لاحظ اقترانه في طلب العلم تقدمه عليهم، ونبوغه المبكر تلمذوا عليه، وبدعوا بأخونه عنه الفهم، وما إن تقدم به طلب العلم حتى فتح الله عليه آفاق العلم، فخرج عما اعتاد عليه بلمه من الاهتمام بالفقه الحنبلي فقط، إذ تطلع إلى كتب متعددة من تفسير وحديث وغيره، وكنى بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وسار على نهجها في اتباع الأدلة والاستنباط. وكان من شدة طلبه للعلم أن قرأ على مشايخ عصره في علم الحديث والمصطلح والأصول والفروع والتفسير وأصول الدين وعلوم العربية، وأكب على المطالعة في كتب الفقه والحديث طيلة حياته، وكان يحفظ كثيرا من المتون العلمية، كما كان واسع الإطلاع في كل جانب من جوانب الحياة التي تتعلق بحياته ورجاء الناس؛ ليعرف حالهم، وليكون عنده الدراية الواعية التي يمتشى بها في حياته. ولا أدل على حرصه على طلب العلم من المؤلفات التي أورثها وتداولها طلبه الجلب من بعده. وكان يميل كثيرا إلى كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ولهذا جاء من تأليفه في التفسير والحديث وغيره ورد لا ينضب من العلم، ورفد لا ينضب على متتبع لمؤلفاته. أخلافة: منذ أن تربي وترعرع، كان صالحا محافظا على قواعد الدين ومحبيا للخير والإحسان إلى الفقراء والضعفاء، كان ذكيا محبا للمناقشة ومتموضعا وطيب الأخلاق في معاملته للصغير والكبير والغني والفقير، وكان ورعا زاهدا، عرض عليه القضاء سنة (1360هـ) فرفض ذلك لانشغاله بطلب العلم، كما كان عزيز النفس طلق الوجة لا ترى عليه سمات الغضب، محبا لأفعال الخير، وكان كثير الاجتماع بالعلماء والخاصة، ينشاق لحديث جميع الناس بسهولة وبساطة تعامله مع الآخرين. ووصف بأنه أرق من النسيم وأعذب من السلسيل، لا يعاتب على الهفوة، ولا يؤاخذ بالخفوة، ويتحبه إليه العبد والقريب، وكان جوادا بماله ونفسه وعلمه وبكل ما يستطيع القيام به، فلا يدخل بشيء أبدا مهما كانت الظروف. وقد وضع الله له القبول في الأرض، وأعطاه محبة في القلوب، فكان الناس يحبهون محبة لا تقدر بثمن، وكان له زعامة شعبية في النفوس، فكانت كلمته مسموعة وأمره مطاعا في كل الأقوال والأعمال التي تصدر عنه. وكان مخلصا للعلم والدين، حرصا على مصالح المسلمين، راجيا من الله أن تكون مجتمعاتهم متمسكة بالدين. فكان كثيرا ما يتصل بالناس، وينفد أحوالهم، ويحل مشاكلهم، ويعلم الجاهل، ويرشد الضال، ويحقق لهم الخير. فكان -رحمه الله- لين الجانب متواضعا، عليه وقار العلم والعبادة، فكان إذا جالسته كأنك مع أقرب الناس إليك ما تجده من الزهد والتواضع، ولم تقتصر أخلاقه على ذلك، بل كان لتلامذته وطلابه نصيب من ذلك. فكان في التدريس والتعليم من أحسن العلماء وأبلغهم، وكان مرتبا ملتزما ومنظما دراسيا، يختار العلوم المفترمة والكتب النافعة، يشاور تلاميذه وأخذ برأي الأكثرين منهم، وهم يحرصون على تلقى العلم عليه والانتفاع بمؤلفاته التي ألفها. وكان إذا جلد وصبر وقوة على مقارعة الدروس وعدم الضجر، صورا على شدة البرد وعلى شدة الحر في الدروس والتعليم، ولم يسع عنه أنه تنحصر مرة واحدة. إحسانه للناس: وسنذكر مثلا على إحسانه للناس، كما كان له من أفعال كثيرة حسنة جهرية وسرية لم تظهر إلا بعد وفاته، ومن الأمثلة السرية تذكر مثلا على ذلك: أن امرأة أرملها لها بيت سكنت فيه، ولحقها نبي ورهنت المبيت، وحيث إن المرأة ليس لها اكتساب تتسبه لترد الدين الذي عليها، فإن الله لم يعصها وجأها من يقوم بكفالتها من وجهه الخير الذي يسوق لها دينها، فكان طريق الشيخ رحمه الله. فكان يعطيها مالا ياتها لصاحب الدين ويتقي القليل، وما ياتها من غير يعطونه إياها من كافة الجهات، ليقتسمها على الفقراء والمحتاجين، وبذلك تعاهد أن لا يعطي ثلث الأرملة كثيرا من الدين قبل أن تأتي الشيخ الأجل بأشهر مع أن الدين كان كثيرا. وعندما توفي الشيخ وظهر الخير للمرأة بوفاته صارت ولا زالت تدعو إلى الله بالمغفرة والرحمة لما قام به من العمل من جهةها، وهذا مثال يدل على حسن المعاملة للفقراء والمحتاجين والناس أجمعين. وهناك أمثلة: تدل على معاملته في أفعال الخير، ولكن بطون إن العماد لذكر هذه الأمثلة ولو ذكرت هذه الأمثلة لأفضى بنا إلى التناول، وإنما أننا بهذا المثال لما يقف على الناس من حسن معاملته. صفاته الخلقية: كان قصير القامة، ممتلئ الجسم، أبيض اللون مشربا بالحمرة، مدور الوجه طلقه، كثيف اللحية البيضاء، وقد أبيضت مع رأسه وهو صغير. كان شعره كثيفا وكانت الكثافة في شعر لحيته أقرب من رأسه وهو شاب وكذلك وهو كبير. يتلأأ وجهه كأنه فضة، وجهه حسن، عليه نور في غاية الحسن وصفاء اللون، نير لا يرى إلا منسما أو بادية أسارير وجاه، علمه: بدأ طلب العلم -رحمه الله- في وقت مبكر، فحفظ القرآن عن ظهر قلب قبل تمام الثانية عشرة من عمره ولما كان عمره ثلاثا وعشرين سنة بدأ يوفق في طلبه للعلم والتدريس واستفاد وجاه، وقد تلقى عنه الكثيرون واتفَعوا بعلمه واستمر على ذلك إلى سنة خمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة حتى صار الشيخ معلما في التعليم والتدريس والاستفادة. وكما ذكرنا سابقا كلما تقدم به طلب العلم فتحت أمامه آفاق العلم، لذا خرج كما اعتاد عليه علماء بلده من الاهتمام بالفقه الحنبلي فقط، فتوسعت مداركه وتفتق ذهنه وتنوعت علومه من كتب التفسير والحديث والتوحيد، وأكب على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وأنه لا يطعن في علماء المذاهب كبعض المتهوسين، وكان يميل إلى آراء شيخ الإسلام وتلميذه، وربما يخرج عنهما إذا قوي عنده الدليل ويحلل مذهب الإمام أحمد أساسا له إذ لم يتوقف خلفه. كما خرج من مرحلة التقليد إلى مرحلة الاجتهاد المقيد، فصار يرجح من الأقوال ما يبرحه الدليل، ويصدقه التعليل، وكان إذا عرض على مسألة متعددة يجب عليها اختصار غير محل، وكانت فتاواه غير طويلة، فكانت سهلة، مما يشاء على أنه سريع البديهة، قوي الذاكرة، سريع الكتابة يدبر التحرير، ولهذا تجد في مؤلفاته الكثير مما يدل على ذلك من إتصافها بالأسلوب الشيق الذي يفهمه العامة والخاصة، وكان له الفضل في إنشاء مكتبة في مدينة عتيزة وكان ذلك سنة (1358هـ). أبرز مشايخه: درس الشيخ -رحمه الله- على عدد من المشايخ، فأخذ العلوم والفنون المتنوعة، منهم: الشيخ محمد بن عبد الله بن سليم من علماء بريدة وقرأ القرآن وحفظه على سليمان بن داغ في مدرسته وما حمار والشيخ إبراهيم بن حمد الجاسر أخذ عنه الفقه والحديث عندما عين قاضيا في عتيزة وجلس للتدريس فيها، والشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل أخذ عنه الفقه والحج، والشيخ صالح بن عثمان القاضي قاضي عتيزة أخذ عنه التوحيد والتفسير والفقه وأصوله والنحو، وهو أكثر من قرأ عليه ولازمه ملازمة أكثر من عشرين سنة، والشيخ عبد الله بن عائض العويضي الحربي والشيخ صعب بن عبد الله التويجري والشيخ علي محمد بن إبراهيم بن محمد السبائي والشيخ علي بن ناصر أبو وادي قرأ عليه في الحديث والأمهات الست وأجازته في ذلك، والشيخ محمد الأمين محمود الششتي نزل الحجاز قديما ثم رحل إلى بلدة الزبير قرأ عليه التفسير والحديث ومصطلح الحديث أثناء وجوده بمدينة عتيزة "أخذ عنه سندا بالرواية"، والشيخ محمد بن الشيخ عبد العزيز بن محمد بن عبد الله المانع مستشار المعارف بالمملكة العربية السعودية، وقد قرأ عليه في عتيزة وإبراهيم الحطواني أبرز تلامذته؛ فأما تلاميذه فالكثيرون لا يعدون بالأصابع، لكنهم وتهدم لحضورهم للمجلس العلمي والثقفي، ففهم: الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين وهو الذي خلف في التدريس والإفتاء في عتيزة وهو إمام المسجد الكبير بعتيزة ومدرس في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم والشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن صالح بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن صالح بن عبد الرحمن صالح بن عبد الرحمن صالح بن منصور الزامل المدرس بالمعهد العلمي بعتيزة سابقا، والشيخ عبد الله بن محمد العوولي المدرس بالمعهد العلمي بمكة المكرمة والشيخ حمد بن محمد البسام المدرس بالمعهد العلمي بعتيزة ثم درس في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فرع القصيم وكان هو الفارئ على الشيخ في الدرس، والشيخ سليمان بن صالح بن حمد بن بسام بن أعيان عتيزة والشيخ محمد بن عثمان بن الشيخ صالح القاضي إمام مسجد أم حمار، والشيخ عبد العزيز بن محمد السلطان المدرس بمعهد إمام الدعوة بالرياض وقد سلك طريقة شيخة بالتأليف، والبعيد عن الدنيا، والشيخ عبد الرحمن بن عقيل قاضي جيزان والشيخ محمد العبدلي والشيخ عبد الله العبد العزيز المطوع شقيق الشيخ محمد المطوع أتى عليه ملازمة من تلامذة الشيخ عمر بن سليم إذ كان قد قرأ على الشيخ عمر وصحبه في بعض أسفاره، والشيخ محمد بن عبد الله بن مانع والشيخ علي بن محمد بن زامل آل سليم، وهو أعلم أهل نجد في زماننا هذا بالنحو، وهو أكثر من قرأ عليه ولازمه ملازمة أكثر من عشرين سنة، والشيخ عبد الله بن محمد القصيمي والشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد البسام وكان أحسن تلاميذه في إعادة الدرس بعد إقامته من الشيخ، والشيخ عبد العزيز بن محمد البسام وهو النائب عن شيخه في حياته في الإمامة والخطابة، والشيخ عبد الله بن حسن آل بركبان، وهو مدرس بالمعهد العلمي بعتيزة والشيخ محمد بن سليمان بن عبد العزيز البسام يقيم في مكة المكرمة ومدرس في الحرم المكي الشريف، وكان من أخص أصحابه، والشيخ عبد المحسن الخريدي ولي القضاء في جيزان وغيرهم كثير وكثير. أهم مؤلفاته: رحمه الله- العديد من الكتب والرسائل والفتاوى، بعضها قد طبع والبعض الآخر لم يطبع بعد، وقد استهدف في تأليفه نشر العلم كما تعلمه من العلوم المختلفة من خلال الكتب التي ألفها والتي جمع بعضها بعد وفاته، وهي بخط يد منها: 1- تفسير القرآن الكريم المسمى (تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن)، 2- "الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين" وهو توضيح لنونية الإمام ابن القيم رحمه الله. 3- "منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين" (ط)، وهو هذا الكتاب الذي بين أيدينا. 4- "طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفه القواعد والضوابط والأصول" (ط). 5- "الرد الصحيح بحل جميع المشاكلك" (ط). 6- "التبسيات اللطيفة على ما احتوت عليه الواسطية من المباحث المهمة". 7- "إرشاد أولي الألباب، لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب"، وقد رتب على طريقة السؤال والجواب. 8- "هجة قلوب الأبرار وقرة الأخبار في شرح جوامع الأخبار" وهو شرح لتسعة وتسعين حديثا. 9- "توضيح الكافية الشافية" (نونية ابن القيم المشهورة)، طبع بالخطبة العلمية، في 10- "الخطب على المناسبات" وهي خلاف الخطب العصرية القيمة. 11- "الدرة الهبة، شرح القصيدة الثانية في حل المشكلة القدرية" لابن تيمية 12- "رسالة لطيفة جامعة، في أصول الفقه المهمة". 13- "القواعد والأصول الجامعة، والفرق والتفاسيم البديعة النافعة". 14- "القواعد الحسان لتفسير القرآن". 15- "تنزيه الدين وحملته ورجاله، مما اقتراه القاصمي في أغلاله". 16- "وجوب التعاون بين المسلمين، وموضوع الجهاد الديني". 17- "القول السديد في مفاهيم التوحيد". 18- "تيسير الطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن". 19- "الأدلة القاطعة والبراهين في إبطال أصول الملحدين" رساله. 20- "التوضيح والبيان لتبصرة الإيمان". رساله. 21- "الوسائل المفيدة للحياة السعيدة"، مختصر مرصه وفاته: أصيب -رحمه الله- عام واحد وسبعين وثلاثمائة وألف (1371هـ) بمرض ضغط الدم وضيق الشرايين، "فكان يعتره المرة بعد الأخرى وهو صابر عليه مدة خمس سنوات فزاد عليه أخيرا". فكانت أعراضه ظاهرة عليه أحيانا من خلال الكلام فقد يقف ولو كان يقرأ القرآن ثم يتكلم ويرجع إلى حالته الطبيعية، فسافر إلى لبنان سنة (1372هـ) على نفقة الدولة، فأرسلت إليه طائفة تحمل لجنة من الأطباء المهرة لتشخيص المرض، وبعد أن وصل الأطباء رأوا أن يسافر الشيخ إلى لبنان ليلتقى العلاج هناك؛ إذ كان العلاج غير متوفر في السعودية آنذاك، فسافر إليها، وجلس فيها نحو من شهر حتى شفاه الله، وهذا وقد استفاد من رحلته تلك، بالإضافة إلى العلاج فوائده العلمية، فقد تعرف خلال المدة التي قضاها في لبنان على عدد من علمائها وفضلاتها "منهم الشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني". [ثم عاد إلى عتيزة ليكمل عمله وتدرسه مع أن الأطباء نصحوه بأن لا يجهد نفسه، وأن يعطي لنفسه الراحة وقلعة التفكير، لكنه لم يصبر على ترك العلم، وبدأ التعليم والتأليف والبحث بعد أن أكمل الدرس للطلاب ثم صلاة العشاء الآخرة إماما، وبعد السلام أحس بتقل وضغط، فأشأ إلى بعض من شهر جمادى الآخرة سنة (1376هـ)، أحس بشيء في جسمه مثل البرد والضعف، وبعد أن أكمل الدرس للطلاب ثم صلاة العشاء الآخرة إماما، وبعد السلام أحس بتقل وضغط، فأشأ إلى بعض تلاميذه أن يمسك بيده ويذهب به إلى بيته، فخرج لذلك أناس آخرون من الذين حضروا للصلاة، وما إن وصل الشيخ إلى بيته حتى أغمى عليه، ثم أفاق بعد ذلك وذكر الله وأثنى عليه وحمده، وتكلم مع الموجودين عنده بكلام حسن، وبعد ذلك عاوده الإغماء مرة أخرى فلم يتكلم. وفي الصباح قرر الطبيب بعد الكشف أن هناك نزفا في المخ، وقال: إن لم يدرك العلاج سريعا فإنه معرض للموت، فهرع أهل عتيزة لذلك، وقاموا بإرسال برقية إلى جلاله الملك " فيصل بن عبد العزيز آل سعود " عاجلة جدا فأصدر أمره بعدها بأن تقوم طائرة فيها مهرة من الأطباء إلى مدينة عتيزة لكن الطائرة لم تستطع الهبوط في المطار لأن السماء كانت مليدة بالغيوم، وكان الرعد والبرق والريح شديدا، فتأخرت جدا في الهبوط، وكان قصاء الله على الشيخ قد سبق كل شيء، فتوفي -رحمه الله- قبيل فجر يوم الخميس الموافق 22 جمادى الآخرة سنة ست وسبعين وثلاثمائة وألف (1376هـ). وما إن كمل الناس بوفاه الشيخ حتى أصيبوا بدعوى وحرز شديد، فسالت الدعوى، وحزنت القلوب، وبكى الصغار والكبير والقريب والبعيد، وكان ذلك اليوم مشهودا في تاريخ مدينة عتيزة لما صاحب ذلك اليوم من حزن، وكان يوما لا تكاد الأقلام تعبر فيه عما تكنه الصدور، فكان يوما لا يوصف، لما كان فيه الناس من الأحوال البسيطة لوفاه هذا الشيخ الجليل. ثم صلي عليه بعد صلاة الظهر في الجامع الكبير بعتيزة يوم الخميس، وكان الناس في حشد عظيم امتلأ الجامع به، ولم تنته عتيزة من قبل تلك الجموع من الصليين الوافدين والمشييعين للشيخ عليه، وبدأ الناس يدعون له بالرحمة والمغفرة والرضوان، ولما انتهوا من الصلاة على جملة فوق الأعناق فكلموا بتسابيحون لحمله وتسابيحون بكلمات الشوارع مزجحة وملاي بالناس، ليشهدوا الصلاة والدفن. ثم دفن -رحمه الله- في مقبرة الشهوانية [شمالية عتيزة]، وبعد ذلك جاءت التعازي بالبرقيات من المعزين من غير عتيزة ورتبي بمرات كثيرة صبغ عندها. وقد خلف ثلاثة أبناء، هم: عبد الله ومحمد وأحمد "كانوا من خيرة زماننا دينا وخلقنا ويشغلون بالتجارة". [وبهذا قضى الشيخ -رحمه الله- حياته في العلم تعلمًا وتعليمًا وأثابًا وتأليفاً، وتوفي عن عمر يناهز تسعا وستين سنة]، عُرف له ورع وعفا عنه وأدخله فسيح حياته. قال بعض تلاميذه بعد فقده: "وبموته فقد أعز وأغلى شخص يعيش في هذه البلدة"، وبذلك أحس الناس بالفراغ الواسع بفقده، وما زال البعض يذكرونه والقلوب وترجأ أن سمعت اسمه، وكلما ذكر اسمه فإن الألسن تذكره بما فعله، وبما قام به من الأعمال الخيرة للناس أجمعين. ما قيل من الشيخ رحمه الله- إن ما قيل عن الشيخ -رحمه الله- من قبل بعض أهل العلم المعاصرين واللاحقين لبين مكانة الشيخ في العلم، ومن ذلك ما قاله فيه الشيخ ابن مانع "عالم عصرنا، وعلامة مصرنا". وذكر الشيخ عبد الرزاق عفيفي عميد معهد القضاء العالي في المصنف: "... فإن العلماء في هذا العصر كثير، ولكن قل منهم من يستقي الحكم من منبعه، ويستند إلى أصله، ويتبع قول العمل، ويتحرر الصواب في كل ما يأتي ويترد. وإن من ذلك القليل- فيما أعتمد- الشيخ الجليل عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي -رحمه الله- فإن من قرأ مصنفاته، وتبع مؤلفاته، وخاطله، وسير كل أيام حياته، عرف منه الدأب في خدمة العلم وأطاعا وتعلما، ووقف من على حسن السيرة وسماحة الخلق واستقامة الحال، وأضاف إخوانه وطلابه من نفسه، وطلب السلامة فيما جرى إلى بشر أو يفضي إلى نزاع أو شقاق، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة". وقال الشيخ سليمان المشعل كان عالما جليلا وقاضيا مسددا، لما علم بوفاته قال: " مات اليوم عالم نجد، وقد طاب الموت بعد هذه الشخصية الفذة فاصدع ومات في 12 من رجب بعد وفاة [الشيخ] السعدي بتسعة عشر يوما".